



رسائل الثورة السورية المباركة (95)

ثوارنا علاء، فاحترموا عقولهم

استقبلت تعليقات ورسائل لا تُحصى رداً على مقالتي الأخيرة عن "الطائفة الكريمة"، وقد توزع أكثرها بين طرفَي المسألة الأقصيَّين، فمن الناس من لامني لأنني كنت رقيقاً لطيفاً وأنكرت على المظلومين حقهم في الرد على ظالمِيهِم عيناً بعين وسناً بسنّ، أي بقتل نساء من قتلوا نسائنا وذراري من قتلوا ذرارينا. ومن الناس من لامني على وصفي القاسي للعلويين وعلى إنكار شراكتهم في الوطن وعلى الكتابة الصريحة في هذا الموضوع الخطير.

الذي لاحظته هو أن أغلبية الفريق الثاني، الأغلبية وليس الجميع، من خارج سوريا، وأغلبية الفريق الأول، الأغلبية وليس الجميع، من أهل الداخل. هذه التعليقات والردود دللتني، هي وكثيرٌ غيرُها مما جاءني في الماضي تعليقاً على مقالات سابقة، دللتني على الشقة الكبيرة بين أهلنا في الداخل وأهلنا في الخارج. فمع أن الذين يقرؤون ويتفاعلون مع المقالات من أهل الخارج هم جزء من جمهور الثورة، إلا أن الفرق بينهم وبين أهل الداخل كبير، ولا يبدو أنهم يشعرون بالمعاناة بالدرجة نفسها التي يشعرون بها أهلنا في الداخل، الذين صارت المحنَّة جزءاً من حياتهم التي يعيشون.

قلت إنني استقبلت تعليقات ورسائل لا تُحصى، وقد بدأت بالرد عليها فُرادي، ثم رأيت أن الذي يقتضي الرد ليس الأفكار التي وردت في المقالة، ولو فعلت لما استفدت لأن لكل من الناس رأياً يراه و موقفاً يقفه من المسألة لا يكاد يرضي بغيره. وقد تعلمت بالتجربة أن تلك المسائل الجدلية يصعب أن تتفق عليها الآراء، فكفى بالكاتب أن يقرب البعيد وأن يفتح للمفكر باب فكرة جديدة لم تخطر بباله من قبل، لعله يَرِد مَورَدَها فتوصله إلى نهاية غير التي كان ينتهي إليها. الذي يعنيني ليس محتوى المقالة وإنما هو المنهج الذي ينتهجه بعض أهل الرأي والقلم، وسوف أسميه "منهج التضليل الثوري بدعوى مصلحة الثورة".

* * *

هل شعبنا السوري الثائر المصاير شعب قاصر يستحق الوصاية؟ هل الثوار قطيع من البله الأغبياء أم أنهم جماعة من العلاء الأذكياء؟ أليس جمهور الثورة هو الذي يضع الخطوط الحمراء لثورته ويستميت بالدفاع عنها، فيقاوم الانزلاق إلى

الفتنة الطائفية ثم يقاومها وما يزال يقاوم، برغم الدفع الشديد الذي يدفعه إليها النظام؟

لقد أثبت الشعب السوري التاثير في الميدان أنه أنسج وأعقل من كل الذين انتدبو أنفسهم للحديث باسمه، سواء أكانوا من الساسة أم من الإعلاميين أو من الكتاب والمفكرين، فمن العار ومن الخطأ البالغ أن يتعاملوا معه وكأنه مخلوق قاصر، أو أن يتعالوا ويعتاملوا عليه ويدعوا الوصاية بحجة مصلحة الثورة، فُيُخْفِوْ عنْهُ أَمْوَالَ وَيُنَاهِرُوْ فِيْ أَمْوَالَهُمْ. ومن أجل ذلك أحببت أن أكتب هذه المقالة الجديدة، لا دفاعاً عن المقالة القديمة نفسها، بل رداً على رأي ارتكاه كثيرون ممن ردوا عليها، ملخصه أنني ما كان ينبغي لي أن أقول الحقيقة للناس إذا كانت الحقيقة لا تتوافق المصلحة العامة، فإنهم يمكن أن يقرؤوها قراءة ناقصة فيقتطعوا منها ما يوافق هواهم ويتركوا ما يخالفه، وحتى لو كان المزاج العام الذي ينتشر بينهم هو مزاج الغضب والانفعال فيجب علينا أن نتجاهله ولا نتحدث عنه حديث الصدق والصراحة. هل ترون أن هذا الرأي صواب؟

أنت تعرفون قدور الضغط التي يُطْهِي بها الطعام؟ إن سيدات كثيرات يقلن إنها واحدة من أفضل مخترعات الزمان الأخير، فاللحم الذي كان يحتاج في الماضي إلى ست ساعات لينضج صار ينضج في قدر الضغط في أربعين دقيقة أو خمسين، والخضار التي كانت تحتاج إلى ساعة صارت تكفيها ربع ساعة. ولكن كيف أمكن ذلك؟ المسألة ليس فيها سحر ولا تكتنفها معجزة. غاية الأمر أن الهواء إذا سخن يتمدد، وكلما ارتفعت درجة حرارته ازداد تمدده وازداد حجمه، إنها حقيقة علمية يعرفها طلاب المدارس، وهي مبدأ عمل هذا الاختراع المدهش. إننا نُحْكُمُ إغلاق غطاء القدر ثم نبدأ بتسخينها (الفائدة: القدر كلمة يجوز فيها التأنيث والتدكير)، وعندئذ يبدأ الغاز داخلها بالتمدد ويضغط على المحتويات بقوة شديدة تسارع في طبخها وإنضاجها، وفي اللحظة التي يصل فيها الضغط في الداخل إلى غاية احتمال القدر ينفتح ثقب صغير فيندفع البخار الساخن وببدأ الصفير.

هل فكرتم يوماً ماذَا يحصل لو لَذِكَرَ الثقب الصغير الذي يسمح للهواء المضغوط بالخروج؟ لو أن قدرًا محكم الغطاء وضع على النار ساعة بعد ساعة فلم يُسمح للهواء المتمدد داخله بالخروج ولم تُطْفَأْ تحته النار فما ذَا يحصل؟ سوف ينفجر ويتطاير قطعاً وشظايا في كل اتجاه. هذه هي صورة شعبنا الذي يعيش المحنّة في سوريا اليوم؛ إنه قِدْرُ ضغط هائل محكم الإغلاق تضطرم أسفل منه النار، فإذا سدتم منفذ تنفس الهواء فلا أمان من الانفجار، وإذا وقع الانفجار فسوف يأكل البلاد والعباد.

* * *

يا أيها العقلاء: عليكم أن تدركوا حجم الاحتقان والغضب اللذين أوجدتهما الممارساتُ التي يمارسها عامة العلوين في أحياط وقرى المسلمين السنة. إن هذا الغضب والاحتقان قبلة موقوتة هائلة، قبلة نووية موقوتة إذا انفجرت ستدمّر سوريا كلها، ولذلك اجتهدتُ غاية الاجتهاد في نزع فتيلها بالطرح الصريح الذي يجمع طرفي الموضوع ويزوّزان بينهما، بلا مواربة وبلا تدليس كما يصنع كثير من الكتاب الذين يدورون ويلفون ويحاولون أن يقنعوا جمهور الثورة بأن الطائفة العلوية رائعة كريمة ولكن بعض العلوين فقط مع النظام! إذا بدأ الكاتب بهذه الذنبة فلن يصدق بقية كتابته أحد، لذلك اخترت أن أكون صادقاً وأن أقول الحق بطرفيه: لا أجمل الضحايا فأسوغ لهم ما لا يرضاه الله ولا يوافق عليه الشرع والقانون، ولا أجمل الجلاد فأتزّلف إليه وأكيل له المديح الفجّ الكاذب.

ما كان لرائد أن يكذب أهله ليرضيهم، ولا ينبغي للعقلاء أن يغفلوا عن صيحة النذير إذا صاح النذير. يا أيها العقلاء: راقبوا مؤشرات الغضب والاحتقان ولا تخدعوا أنفسكم ولا تخدعوا غيركم، إن تجاهل علامات المرض يوشك أن يصل به إلى نقطة يستحيل معها العلاج.

وإني لأرى صنفين من الناس لا يقدّرون عواقب الأمور، أحدهما أقل خطراً من الآخر. فأما الأقل فهو الذي لا يبالي بأن يسدّ فتحة القدر فيتسبب في ارتفاع ضغط البخار، ذلك هو الذي يمنع المعيّنين من الشكوى ويلزمهم بالصمت في سبيل المصلحة الثورية والوحدة الوطنية. وأما الأشد خطراً فهو الذي يسدّ الفتحة ويزيد تحت القدر ضرراً النار، ذلك الذي لا

يكفيه أن يمنع الناس من نقد الطائفة العلوية، بل يكيل هو نفسه لها المدح ويصرّ على وصفها بالكرم ويزعم أن لها مشاركة في الثورة كسائر الأقليات والأكثريات!

لا أظن أن أيّاً من ذينك الفريقيين يدرك البركان الذي تنطوي عليه جوانح الناس. لقد بلغ الغضب ببعضهم مبلغاً حمله على الدعوة إلى إفان العلوين كافة، وكثيرون يدعون إلى قتل رجالهم أجمعين، وآخرون يريدون تهجير الطائفة كلها إلى إيران، ومن الغاضبين من يدعون إلى تسمية بعض جمع الثورة باسم "نعم للطائفية ونعم للحرب الأهلية"... إلى غير ذلك من طوفان مفزع من الشعارات والدعوات تتعجّ بها صفحات الثورة ومنتدياتها عجّاً وتتعجّ ثجّاً، فإذا فهمنا موجبات ذلك الغضب وأحسنا التعامل معه أطفأنا النار ومنعنا الانفجار، أما تجاهلها وتجاهل مشاعر الناس وانفعالاتهم فليس سوي سكب للزيت على النار وتسريع بالانفجار.

* * *

لو أراد العقلاً أن يتداركوا الكارثة فعلاً فلينشرروا مقالة "الطائفة الكريمة" في كل مكان، أو ليخاطبوا الجمهور بمثل خطابها، خطاباً صريحاً لا مجاملة فيه ولا لفّ ولا دوران. اعترفوا بالمشكلة، صِفوا الطائفة بصفتها التي اكتسبتها بعملها لا بما تزيّنها لكم أخيلتكم، ثم اطلبوا من الناس أن يقفوا موقفاً صحيحاً وأن لا يتجاوزوا حكم الدين والعقل والفطرة السوية والقانون العادل. صدقوني إنكم لن تلقوا استجابة من الناس إلا بالصدق والصراحة وبتسمية المسميات بأسمائها، وما لم تعاملوهم معاملة العقلاً الراشدين فلن تخرجوا منهم بشيء.

كونوا صرحاء صادقين إذا خاطبتم شعبنا السوري العظيم ولا تتلاعبوا بالحقائق ولا تحاولوا إخفاءها بحجّة المصلحة الثورية. أنتم تعلمون أن العلوين يعيشون في أحياط تكاد تقتصر عليهم في المدن، أو في قرى لا يسكنها غيرهم حوالها، وجيئنهم من غيرهم يعرفون أن أحياطهم وقرابهم هي قلاع للنظام، هي مصدر الأذى وهي مستودعات الشبيحة الذين يرتكبون كل أنواع الجرائم والموبقات، وإن أهلنا في سوريا ليقسمون أن أي حي علوي أو قرية علوية لم يشاركا في الثورة أبداً.

لقد سعى بعض أصحاب النظرية "التفويقية التلفيقية" إلى إقناع الناس بأن للعلويين مشاركة في الثورة فضرموا مثلاً بمصياف، وهذا المثال لا يخرج عن واحدة من اثنين: غلطة أو خدعة، لأن مصياف ليست علوية بل هي بلدة إسماعيلية، ولمؤسسة الأغاخان وجود كبير فيها يتركز على ترميم قلعتها التاريخية وتشغيل عدد كبير من سكان البلدة. وأنا قلت سابقاً أكثر من مرة إن مشاركة الطائفة الإسماعيلية في الثورة مشرفة، سواء في السلمية أو مصياف أو غيرهما من قرى ريف حماة. لقد شارك إخواننا الإسماعيليون بالثورة من أيامها الأولى، وكان لهم جهد كبير في استقبال وإيواء لاجئي حماة وريفها في هذه المحنّة ومنكوبها حماة في محنّة الثمانينيات. نعم، إن الأكثريّة الكارثة من سكان مصياف من الإسماعيلية وفيها أقلية سنية وعلوية، فمن أراد أن يقنعنا بأن للعلويين مشاركة في الثورة فليبحث عن غيرها، ولسوف يطول به البحث بغير طائل!

أما العلويون أنفسهم فلو أنهم أنصفوا لنشروا مقالتي في مواقعهم وعلى صفحاتهم، فإن يوم سقوط النظام قادم -بإذن الله-، وإن تحكم الطائفة العلوية بسوريا يقترب من نهايته. قد يكون انتصار الثورة بعد أسبوع أو شهر أو مئة شهر، قد يُقصر وقد يطول إلا أنه قادم لا محالة -بإذن الله-، لأن تحكم الأقلية بالأكثريّة مخالف لسنة الواقع والتاريخ ولأن نظام الاستبداد لا بقاء له مهما بالغ في القمع والإجرام، فإذا جاء ذلك اليوم فسوف يدرك العلويون الذين يسوقهم ما أكتبه اليوم أنني كنت لهم من الناصحين وعن أبريائهم من المدافعين.

المصدر: الزلزال السوري

المصادر: